كامل كيلانى

أساطير العالم

القصر الهندى

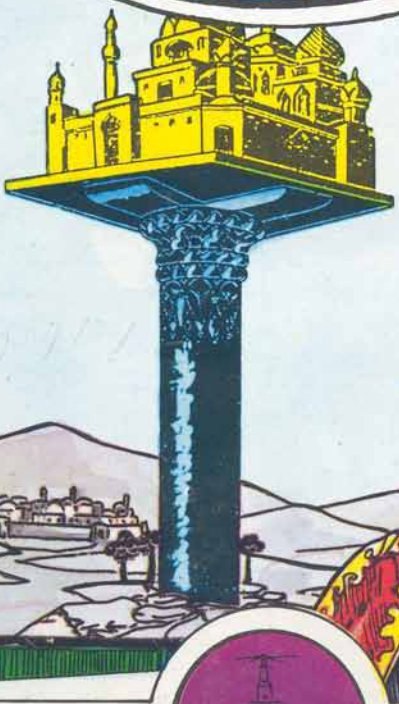

دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

كامل كيلاني

أساطير العالم

القصر الهندي

الطبعة الثانية عشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهره ح م ع

الفصل الأول

ساكِنُ الدوحَة

١ — أُمْنِيَّةُ الْمَلِكِ

كانَ لِمَلِكِ « بَنارِسَ » أُمْنِيَّةٌ واحِدَةٌ ، يَسْعَى إلَى تَحْقِيقِها جاهِدًا (مُجْتَهِدًا) ، وَلا يَهْنَأُ لَهُ بالٌ أوْ يَظْفَرَ بِإدْراكِها ، ولا يَرْتاحُ قَلْبُهُ حَتَّى يَفُوزَ بِها . وَقَدْ شَغَلَتْهُ هٰذِهِ الأُمْنِيَّةُ الْجَمِيلَةُ زَمَنًا طَوِيلًا ؛ فَأَصْبَحَتْ تُؤَرِّقُهُ (تُسْهِرُهُ ، وَتَقْطَعُ عَلَيْهِ نَوْمَهُ فِي اللَّيْلِ) ، وَتَشْغَلُهُ وَتُهِمُّ خاطِرَهُ (تَمْلأُ قَلْبَهُ غَمًّا وَهَمًّا فِي النَّهارِ) .

أَمَّا هٰذِهِ الأُمْنِيَّةُ الْعَزِيزَةُ الْمَنالِ ، الَّتِي فَكَّرَ فِيها مَلِكُ « بَنارِسَ » وَقَدَّرَ ، ثُمَّ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَهِيَ أَنْ يُشَيِّدَ (يَبْنِيَ) لِنَفْسِهِ قَصْرًا مُبْتَدَعًا ، لَمْ يَسبِقْهُ — إلَى بِناءِ مِثْلِهِ — أَحَدٌ مِن مُلُوكِ الهِنْدِ قاطِبَةً .

٢ — نَمُوذَجُ الْقَصرِ

وَكانَتْ هٰذِهِ الأُمْنِيَّةُ — فِي الْحَقِيقَةِ — صَعْبَةَ الإدْراكِ ، بَعِيدَةَ التَّحقِيقِ ؛ لِأَنَّ مُلُوكَ الْهِندِ قَد تَفَنَّنُوا فِي بِناءِ الْقُصُورِ ، وَبَذَلُوا

وَأَنْفَقُوا – فى تَشْيِيدِها – أَمْوالًا كَثِيرَةً لا تُحصَى ، وَتَأَنَّقُوا (استَعمَلوا الْإِتْقانَ) فى هَنْدَسَتِها ، وَتَفَنَّنُوا فى زَخْرَفَتِها ، ما شاءَ لَهُمُ الْإِبداعُ وَالْفَنُّ ، وَلَم يَدَعُوا لِأَحَدٍ – مِن بَعدِهِم – مَجالًا لِلتَّأَنُّقِ وَالِافْتِنانِ .

وَقَد رَأَى مَلِكُ « بَنارِسَ » أَنَّ كُلَّ جُهْدٍ يَبْذُلُه فِى رِفْعَةِ الْبِناءِ وَاتِّساعِهِ وَتَنْسِيقِهِ ، لَنْ يُثْمِرَ ، وَلَن يُغْنِيَ أَقَلَّ غَناءٍ (لَن يَأْتِيَ بِأَيِّ فائِدَةٍ) . وَأَيْقَنَ أَنَّهُ مَهْما يَبْذُلْ مِنْ جُهْدٍ وَمالٍ ، فَلَنْ يَبْلُغَ شَيْئًا مِمَّا يَرُومُ وَيَطْلُبُ ، وَلَنْ يُحَقِّقَ بَعْضَ ما تَصْبُو وَتَمِيلُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ .

ثُمَّ اهْتَدَى – بَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ – إِلَى طَرِيقَةٍ فَذَّةٍ (وَحِيدَةٍ مُنْفَرِدَةٍ) تُظْفِرُهُ بِأُمْنِيَّتِهِ ، وَتُنِيلُهُ رَغْبَتَهُ ، بِأَيسَرِ نَفَقَةٍ . وَأَقَلِّ مالٍ .

فَمَثَّلَ (صَوَّرَ) – لِهٰذا الْقَصْرِ – نَمُوذَجًا مُبْتَدَعًا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِن مُلُوكِ الْهِنْدِ قاطِبَةً ، وَرَأَى أَن يُشَيِّدَهُ على عَمُودٍ واحِدٍ . وَهٰذا – كَما تَرَى – مِثالٌ لَم يُفَكِّرْ فِيهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ .

وَلستُ أَعْرِفُ : ما الَّذِى أَوحَى إِلَيهِ فِكْرَةَ هٰذا الْقَصرِ الْعَجِيبِ

الَّذِى يُشْبِهُ — فى شَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ — بُرْجَ الْحَمامِ ؟ ولٰكِنَّنِي أعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ وُفِّقَ — عَلَى أَىِّ حالٍ — فِى الاِهْتِداءِ إِلَى مِثالٍ جَدِيدٍ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ كائِنٌ كانَ .

٣ — الْحَطَّابُونَ فى حَضْرَةِ الْمَلِكِ

ثُمَّ نادَى مَلِكُ « بَنارِسَ » كَبِيرَ وُزَرائِهِ ، وَقالَ لَهُ :

« أَحْضِرْ إِلَىَّ أَقْدَرَ الْحَطَّابِينَ وَأَبْرَعَهُمْ ، مِنْ كُلِّ قاصٍ وَدانٍ ، وَاجْمَعْهُمْ مِنْ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ . وَمُرْهُمْ أَنْ يُحْضِرُوا إِلَى مَدِينَتِي أَضْخَمَ شَجَرَةٍ أَنْبَتَتْها الْغابَةُ ، عَلَى أَنْ يَتِمَّ ذٰلِكَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ . »

فَلَمْ يُضِعِ الْوَزِيرُ وَقْتَهُ سُدًى ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَمَعَ لَهُ ثَلاثِينَ حَطَّابًا مَعْرُوفِينَ بِالْقُوَّةِ وَالْحِذْقِ ، مَوْصُوفِينَ بِالإِتْقانِ وَالْبَراعَةِ . وَلَمَّا مَثَلُوا بَيْنَ يَدَىِ الْمَلِكِ ، أَفْضَى إِلَيْهِمْ بِرَغْبَتِهِ ؛ أَعْنِي : كَشَفَ لَهُمْ عَمَّا يَحْرِصُ عَلَيْهِ ، وَأَطْلَعَهُمْ عَلَى ما يَتَمَنّاهُ وَيَسْعَى إِلَيْهِ

فَقالَ الْحَطَّابُونَ لِلْمَلِكِ :

« إِنَّ فِى غابَةِ جَلالَتِكُمْ أَشْجارًا كَثِيرَةً ، مُتَماثِلَةً (مُتَشابِهَةً) فِى

الضَّخامَةِ وَالِارْتِفاعِ ، وَالصَّلابَةِ وَالْقُوَّةِ ، وَكُلُّها صالِحَةٌ لِتَحْقِيقِ هٰذِهِ الْفِكْرَةِ . وَلٰكِنَّ إِحْضارَها إِلَى مَدِينَةِ « بَنارِسَ » أَمْرٌ مُحالٌ ، لا سَبِيلَ إِلَى تَذْلِيلِهِ (تَسْهِيلِهِ)، ومَطْلَبٌ عَزِيزُ المَنالِ (لا أَمَلَ فى إِدْراكِهِ وَتَحْصِيلِهِ) . »

فَقال لَهُمُ الْمَلِكُ :

« أَتَعْجِزُونَ — عَلَى وَفْرَةِ عَدَدِكُمْ ، وَقُوَّةِ بَأْسِكُمْ وَشَجاعَتِكُمْ — أَنْ تَقْتَلِعُوا مِثْلَ هٰذِهِ الْأَشْجارِ ، بالِغَةً ما بَلَغَتْ مِنَ الضَّخامَةِ وَالطُّولِ ؟ »

فَقالُوا لَهُ :

« إِنَّ اقْتِلاعَ هٰذِهِ الْأَشْجارِ الْعَظِيمَةِ أَمْرٌ مَيْسُورٌ ، لا يُرْهِقُنا وَلا يُتْعِبُنا ، وَلا يَسْتَحِيلُ عَلَيْنا تَحْقِيقُهُ ، وَلٰكِنَّ الصُّعُوبَةَ — الَّتِي لا سَبِيلَ إِلَى تَذْلِيلِها — إِنَّما هِيَ فِي جَرِّ مِثْلِ هٰذِهِ الأَشْجارِ وَإِحْضارِها إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ وَعْرَةٌ (صَعْبَةٌ) طَوِيلَةٌ ، وَالْأَشْجارَ هائِلَةٌ ، وَيَصْعُبُ جَرُّها عَلَى أَقْوَى الْأَقْوِياءِ . »

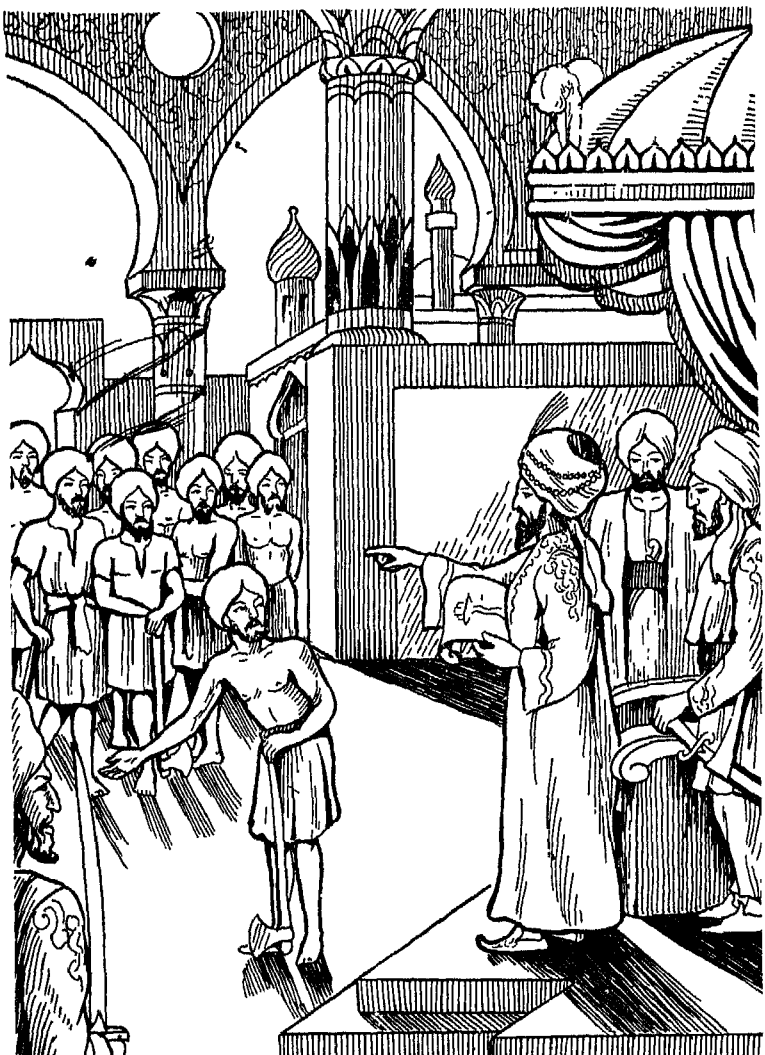

٤ — حِوارُ المَلِكِ

فقالَ لَهُمْ مُتَعجِّبًا :

« عَلَيْكُمْ بِالْجِيادِ (الْخَيْلِ) ؛ فَهِيَ قادِرَةٌ عَلَى جَرِّ هٰذِهِ الْأَشْجارِ . »

فَقالُوا لَه :

« ما أَعْجَزَ الْجِيادَ — يامَلِيكَنا الْعظِيمَ — عَنْ تَحْرِيكِ مِثلِ هٰذا الشجَرِ ، وَزَحْزَحَتِهِ عَن مَوْضِعِهِ قِيراطًا واحدًا ، مَهْما تَبلُغِ الْجِيادُ مِنَ الْقُوةِ وَالْبَأْسِ . »

فَقالَ لَهُمْ :

« عَلَيكُم بِالثِّيران ؛ فَهِيَ أَقدَرُ مِنَ الْخَيلِ عَلَى جَرِّها ، وَأَصبَرُ مِنها عَلَى مَشَقَّةِ السَّيرِ ، وَوُعُورَةِ الطَّرِيقِ . »

فَأَجابُوهُ حائِرِينَ :

« لَيسَ فى قُدرَةِ الثِّيرانِ — أَيُّها الْمَلِكُ الْجَلِيلُ — أَن تَقْطَعَ فى هٰذِهِ الْغابَةِ الْمُقْفِرَةِ (الْخالِيَةِ) الْواسِعَةِ ، أَميالًا كَثِيرَةً

(وَالأَمْيالُ جَمْعُ مِيلٍ ، وَالْمِيلُ طُولُهُ : أَرْبَعَةُ آلافِ ذِراعٍ) . »

فَقالَ لَهُمُ الْمَلِكُ :

« لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْأَفْيالُ ، وَما أَظُنُّها تَعْجِزُ عَنْ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الْغايَةِ ، وَلا أَحْسَبُها تَنُوءُ قُوَّتُها بِالِاضْطِلاعِ بِهٰذا الْمُهِمِّ . فَهِيَ — فِيما أَعْلَمُ — قادِرَةٌ عَلَى الْقِيامِ بِهٰذا الْأَمْرِ ، بالِغًا ما بَلَغَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعَناءِ ! »

فَقالُوا لَهُ يائِسِينَ :

« لا سَبِيلَ إِلى ذٰلِكَ ، يا صاحِبَ الْجَلالَةِ . فَإِنَّ الْأَرْضَ — كَما تَعْلَمُونَ — لَيْسَتْ صَخْرِيَّةً صُلْبَةً ؛ بَلْ هِيَ طِينِيَّةٌ رِخْوَةٌ مَمْلُوءَةٌ بِالْوَحَلِ . وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْأَفْيالُ أَنْ تَسِيرَ خُطْوَةً واحِدَةً ، دُونَ أَنْ تَسُوخَ أَقْدامُها ، (تُغَرْغِرَ أَرْجُلُها) . »

فاشْتَدَّ غَضَبُ الْمَلِكِ ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْغَيْظُ ، وَقالَ لَهُمْ مُتَوَعِّدًا :

« لَقَدْ أَمَرْتُكُمْ أَمْرِى ، وَلا سَبِيلَ إِلى مُخالَفَتِي فِيما أَمَرْتُكُمْ بِهِ ؛ فافْعَلُوا ما شِئْتُمْ ، وَذَلِّلُوا الْعَقَباتِ ، وَسَهِّلُوا الصُّعُوباتِ وَتَغَلَّبُوا عَلَى الْمُحالِ ، وَلا تَرْجِعُوا إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ تُحْضِرُوا إِلى مَدِينَتِي — مِنْ أَيِّ مَكانٍ شِئْتُمْ — إِحْدَى هٰذِهِ الْأَشْجارِ الضَّخْمَةِ

حَدَّثْتُمُونِى بِها . وَقَدْ حَتَمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْجِزُوا هٰذا الْعَمَلَ فى مَدَى أُسْبوعٍ واحِدٍ . »

٥ — دَوْحَةُ الْمَلَكِ

فَرَحَلَ الْحَطَّابُونَ — مِنْ فَوْرِهِمْ — حَتَّى وَصَلُوا إلى دَوْحَةٍ (شَجَرَةٍ) كَبِيرَةٍ ضَخْمَةٍ ، فى قَرْيَةٍ لا تَبْعُدُ عَنِ الْمَدِينَةِ إِلَّا مَسافَةً يَسِيرَةً . وَكانَتْ هٰذِهِ الدَّوْحَةُ هائِلَةَ الْحَجْمِ ، صُلْبَةَ الْعُودِ ، أَنِيقَةَ الشَّكْلِ ، بَدِيعَةَ الْمَنْظَرِ . وَكانَ أَهْلُ الْقُرَى يُحِبُّونَها ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَلَكًا — مِنَ الْمَلائِكِ — يَسْكُنُها ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذٰلِكَ الْمَلَكَ هُوَ الَّذِى أَكْسَبَ الدَّوْحَةَ ذٰلِكَ الْجَمالَ النَّادِرَ ، وَأَفْرَدَها — مِنْ بَيْنِ الْأَشْجارِ الْأُخْرَى — بِالْقُوَّةِ وَالصَّلابَةِ وَحُسْنِ التَّنْسِيقِ .

وَوَقَفَ الْحَطَّابُونَ أَمامَ الدَّوْحَةِ مُفَكِّرِينَ ، مُطْرِقِى رُءُوسِهِم صامِتِينَ . وَطالَ تَرَدُّدُهُم فى اقْتِلاعِها ، وَحَزَنَهُم ذٰلِكَ ، وَمَلَأَ نُفُوسَهُم رَهْبَةً وَفَزَعًا . وَلٰكِنَّ الْمُضْطَرَّ يَرْكَبُ الصَّعْبَ مِنَ الْأُمُورِ .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بُدٌّ مِنْ إطاعَةِ الْمَلِكِ وَتَلْبِيَةِ أَمْرِهِ ، وَلَيْسَ فى إمْكانِهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا إلَيْهِ شَجَرَةً أُخْرَى مِنَ الْغابَةِ الْبَعِيدَةِ !

٦ — أَعْراسُ الْحَطَّابِينَ

وَهٰكَذا قَرَّ قَرارُ الْحَطَّابِينَ — بَعْدَ إحْجامٍ (تَراجُعٍ وَتَرَدُّدٍ) — عَلَى أَنْ يَقْتَلِعُوا هٰذِهِ الدَّوْحَةَ الْعَظِيمَةَ ، وَرَأَوْا — بَعْدَ التَّفْكِيرِ وَالرَّوِيَّةِ — أَنْ يَتَرَضَّوْا ذٰلِكَ الْمَلَكَ الْكَرِيمَ (الرُّوحَ السَّماوِىَّ) الَّذِى يَحُلُّ بِها .

فَجاءُوا بِطاقاتِ الْأَزْهارِ ، وَنَسَّقُوا مِنْها أَكالِيلَ بَدِيعَةَ الْمَنْظَرِ ، ثُمَّ نَثَرُوا الْمَصابِيحَ فى أَثْنائِها . وَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا (لَمْ يَتْرُكُوا وَسِيلَةً) فى إدْخالِ السُّرُورِ عَلَى « مَلَكِ الدَّوْحَةِ » ؛ فَصَدَحَتِ الْمُوسِيقَى ، وَعَزَفَ الْعازِفُونَ ، وَغَنَّى الشَّادُونَ (الْمُغَنُّونَ) ؛ لِيُشْعِرُوا « مَلَكَ الدَّوْحَةِ » بِما قَرَّرَهُ مَلِيكُهُمْ ، وَيَحْتِمُوا عَلَيْهِ (يُلْزِمُوهُ) أَنْ يَهْجُرَ الدَّوْحَةَ قَبْلَ أَنْ يَنْقَضِىَ الْأُسْبُوعُ ؛ لِأَنَّهُمْ قَدِ اعْتَزَمُوا أَنْ يَقْتَلِعُوها ، تَلْبِيَةً لِأَمْرِ : مَلِكِ « بَنارِسَ » .

وَقَدِ افْتَنَّ الْحَطَّابُونَ فى تَنْسِيقِ الْأَزْهارِ ، وَوَضَعُوا مَصابِيحَهُمْ

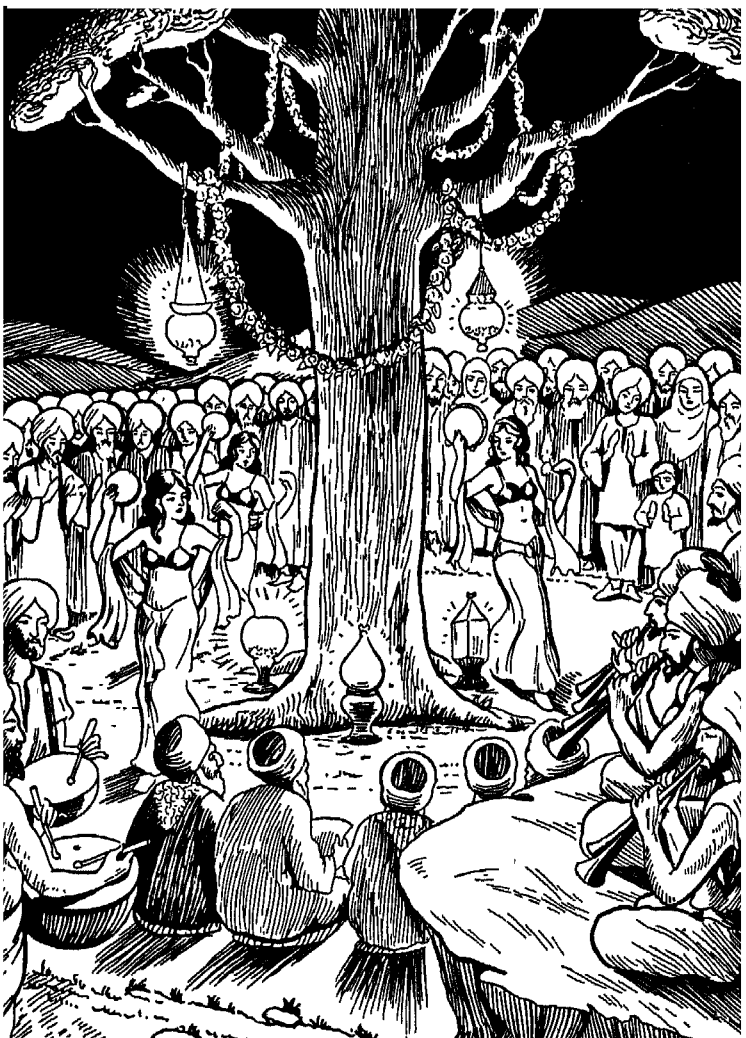

حَوْلَ الدَّوْحَةِ — عَلَى شَكْلِ دائِرَةٍ — وَعَلَّقُوا أَكالِيلَ الياسَمِينِ عَلَى أَغْصانِها ، وَرَبَطوا — فى أَوْراقِ الدَّوْحَةِ — طاقاتِ الْوَرْدِ والرَّياحِينِ ، وَجَعَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَصابِعَ يَدَيْهِ بَعْضَها فى بَعْضٍ ، رَهْبَةً وَخُشُوعًا ، وَتَفَنَّنَ جَماعةٌ مِنْهُمْ فى تَوْقِيعِ الْأَلْحانِ عَلَى طَنابِيرِهِمْ وَعَلَى قِيثاراتِهِمْ ، وَهِىَ : آلاتٌ لِلطَّرَبِ ذَواتُ أَوْتارٍ ، وَغَنَّى آخَرُونَ طائِفَةً مِنَ الْأَغانِى الْمُعْجِبَةِ .

وَقَدْ فَعَلُوا ذٰلِكَ لِيَبْهَجُوا « مَلِكَ الدَّوْحَةِ » (يُفْرِحُوهُ) ، ثُمَّ يُنْذِرُوهُ بِقَرارِ مَلِيكِهِمْ فِى أَرَقِّ عِبارَةٍ وَأَجْمَلِ أُسْلُوبٍ .

٧ — نَشِيدُ الْحَطَّابِينَ

وَأَخَذَ الْحَطَّابُونَ يُحَيُّونَ ذٰلِكَ الْمَلِكَ الْكَرِيمَ بِما هُوَ أَهْلُهُ مِنَ التَّحِيَّةِ ، وَيُمَجِّدُونَهُ وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الثَّناءِ ، وَيَقُولُونَ لَهُ

« يا سَيِّدَ الرَّابِيَةِ (الأرضِ الْمُرْتَفِعَةِ) ، ويا رُوحَ الْأَزْهارِ النَّامِيَةِ النّاضِرَةِ (الْمُتَفَتِّحَةِ الشَّدِيدَةِ الْخُضْرَةِ) : حُقَّ لَنا أَنْ نُبَصِّرَكَ وَنُعَرِّفَكَ بِما انْتَوَيْناهُ (نُخْبِرَكَ بما فِى نِيَّتِنا أَنْ نَقُومَ بِهِ) :

هٰذِهِ فُئُوسُا الْماضِيَةُ (الْحادَّةُ) ، جِئْنا بِها لِنَقْتَلِعَ دَوْحَتَكَ ؛ لِكَيْ تَكُونَ قاعِدَةً راسِخَةً ، يَرْسُو (يَسْتَقِرُّ) عَلَيْها قَصْرُ الْمَلِيكِ الْباذِخُ الشَّامِخُ (الْمُرْتَفِعُ) ، الَّذِى يَسْمُو فى الْجَوِّ كَأَنَّهُ يَحْرُسُ السَّماءَ . فاتْرُكِ الدَّوْحَةَ ، وانْجُ بِنَفْسِكَ . »

ثُمَّ خَتَمَ الْحَطَّابُونَ أَغانِيَهُمْ ، وَأَناشِيدَهُمُ الْمُعْجِبَةَ الشَّائِقَةَ (الْجَمِيلَةَ الْجَذَّابَةَ) بِالنَّشِيدِ التَّالِى :

« يا ساكِنَ الدَّوْحَةِ ، فَوْقَ الرَّابِيَهْ
وَحارِسَ الْأَطْيارِ ، وَهْىَ شادِيَهْ
وَمَلِكَ الْأَزْهـــارِ ، وَهْىَ نامِيَهْ

• • •

لَقَدْ عَزَفْنا ، فاسْتَمَعْتَ عَزْفَنا ثُمَّ شَدَوْنا ، فَأَجَدْنا شَدْوَنا
ثُمَّ رَقَصْـــنا ، فَأَطَلْنا رَقْصَنا

• • •

والآنَ يَأْتِى جَمْعُنا لِيُنْذِرَكْ ، وَحُقَّ لِلنَّاصِحِ أَنْ يُبَصِّرَكْ
بِما انْتَوَيْناهُ ، وَأَن يُحَذِّرَكْ

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

• • •

يا ساكِنَ الدَّوْحَةِ ، فَوْقَ الرَّابِيَهْ
وَحارِسَ الْأَطْيارِ ، وَهْيَ شادِيَهْ :
جِئْنا إلَيْكَ ، بِالْفُتُوسِ الْماضِيَهْ

• • •

شاءَ الْمَلِيكُ ، فاسْتَمِعْ مَشِيئَتَهْ : أَنْ تُصْبِحَ الدَّوْحَةُ — هٰذِي — دَوْحَتَهْ
وَأَنْ تَحُلَّ — فِي غَدٍ — مَدِينَتَهْ

• • •

لِيَرْسُوَ الْقَصْرُ عَلَيْها راسِخا مُبْتَدَعَ الشَّكْلِ ، أَنِيقًا ، باذِخا
يَسْمُو — عَلَى كُلِّ الْقُصُورِ — شامِخا

• • •

يا ساكِنَ الدَّوْحَةِ ، فَوْقَ الرَّابِيَهْ
وحارِسَ الْأَطْيارِ ، وَهْيَ شادِيَهْ :
اُهْرُبْ ؛ فَإِنَّ فِي الْهُرُوبِ الْعافِيَهْ

• • •

شادَ مَلِيكُ الهِنْدِ فِي « بَنارِسا » قَصْرًا — عَلَى جَوِّ السَّماءِ — حارِسا
يُسْلِي الْحَزِينَ ، وَيَسُرُّ الْعابِسـا

• • •

فَلا تَلُمْنا ، إِذْ نُلَبِّي الْواجِبا وَلا تَكُنْ — مِنْ أَجْلِ ذاكَ — عاتِبا
وَلا أَخا حِقْدٍ ، وَلا مُغاضِـبا

٨ — ساكِنُ الدَّوْحَةِ

فَلَمَّا سَمِعَ « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » ذٰلِكَ النَّشِيدَ ، أَدْرَكَ غايَتَهُمْ ، وَعَرَفَ مَقْصِدَهُمْ ، وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنَّ الْحَطَّابِينَ جادُّونَ فى إِنْفاذِ وَعِيدِهِمْ . فَلَبِثَ هادِئًا ساكِنًا — لَحَظاتٍ قَلِيلَةً — ثُمَّ اضْطَرَبَتِ الْأَوْراقُ ، وَتَمايَلَتِ الْأَغْصانُ ، وَانْحَنَتِ الْفُرُوعُ ، كَأَنَّما تُشِيرُ إِلَيْهِمْ أَنَّها قَدْ أَدْرَكَتْ ما يَرْمُونَ إِلَيْهِ ، وَلَبَّتْ رَجاءَهُمْ ، وَلَمْ تَعْصِ لَهُمْ أَمْرًا .

ثُمَّ عادَ الْحَطَّابُون — مِنْ حَيْثُ أَتَوْا — وَقَدِ اقْتَنَعُوا بِنَجاحِ مَسْعاهُمْ ، وَعَرَفُوا أَنَّ « ساكِنَ الدَّوْحَةِ » قَدْ أَذْعَنَ لِمَشِيئَةِ مَلِكِ « بَنارِسَ » ، وَخَضَعَ لِإِرادَتِهِ .

٩ — حَدِيثُ الدَّوْحَةِ

وَلَقَدْ مالَتْ بَعْضُ أَوْراقِ الدَّوْحَةِ إِلَى بَعْضٍ ، وَهِيَ تَقُولُ :

« لَقَدِ اعْتَزَمَ مَلِيكُ « بَنارِسَ » أَنْ يُنَفِّذَ قَرارَهُ ، وَلا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ ، ولا شَيْءَ يدْفعُ أَمْرَهُ وَيَرْجِعُهُ . وَلَسْنا نَخْشَى الْفَناءَ ، وَلا نَرْهَبُ الرَّدَى (لا نَخافُ الْمَوْتَ) ؛ وَلٰكِنَّنا نَجْزَعُ وَنَحْزَنُ لِما يَلْقاهُ ذٰلِكَ « الْمَلَكُ » الَّذِي يَسْكُنُ هٰذِهِ الدَّوْحَةَ ، وَلَيْسَ لَهُ مِن سَبِيلٍ إِلَى تَرْكِها ، وَلا مَأْوَى لَهُ فِي غَيْرِها . وَسَيَكُونُ هَلاكُنا — بِلا شَكٍّ — سَبَبًا فِي شَقاءِ جَمِيعِ الْأَشْجارِ الْمُحِيطَةِ بِنا ، وتَهْشِيمِها وَتَكْسِيرِها . وَقَدِ احْتَمَتْ — مُنْذُ نَشَأَتْ — بِحِمايَتِنا ، وَعاشَتْ — طُولَ عُمْرِها — فِي كَنَفِنا (بَقِيَتْ فِي جانِبِنا وَحِمايَتِنا) . وَما هَمَّنا أَنْ نَلْقَى حَتْفَنا وَمَصْرَعَنا ، وَنَسْتَقْبِلَ مَوْتَنا وَهَلاكَنا ، وَإِنَّما هَمَّنا وَآلَمَنا مَصارِعُ هٰذِهِ الْأَطْفالِ الشَّجَرِيَّةِ الصَّغِيرَةِ ، الَّتِي تَمُوتُ — عَلَى الْفَوْرِ — مَتَى وَقَعَتِ الدَّوْحَةُ الْعَظِيمَةُ عَلَيها . فَمَنْ لَنا بِمَنْ يُبْلِغُ مَلِكَ « بنارِسَ » أَنَّهُ جائِرٌ (ظالِمٌ)

فِي حُكْمِهِ ، وَأَنَّهُ سَيُهْلِكُ ٱلْكَثِيرَ منْ أَطْفالِنا الْأَعِزَّاءِ فِي سَبِيلِ بِناءِ قَصْرِهِ ؟ »

١٠ — فِي الْمَنامِ

أَمَّا « سَاكِنُ الدَّوْحَةِ » ، فَقَدْ قالَ فِي نَفْسِهِ :

« لا سَبِيلَ إِلَى تَرْكِ مَلِكِ « بنارِسَ » وَشَأْنَهُ ، لِيُنْفِذَ هٰذا الْقَرارَ الْجائِرَ . وَلا بُدَّ لِي مِنْ زِيارَتِهِ — فِي عالَمِ الْأَحْلامِ — لَعَلِّي أَسْتَمِيلُهُ وَأَسْتَعْطِفُهُ ، وَأُلَيِّنُ مِنْ قَلْبِهِ الْقاسِي ، فَيَعْدِلَ عَنْ تَحْقِيقِ وَعِيدِهِ . »

وَلَمَّا أَقْبَلَ ٱللَّيْلُ ، واسْتَسْلَمَ مَلِكُ « بَنارِسَ » لِلنَّوْمِ ، ظَهَرَ أَمامَهُ « مَلَكُ الدَّوْحَةِ » — فِي عالَمِ الرُّؤْيا — فِي صُورَةِ شَبَحٍ لامِعٍ ، بَهِيِّ الطَّلْعَةِ جَمِيلِ الْمَنْظَرِ ، مُؤْتَلِقِ الْمُحَيَّا (مُنِيرِ الْوَجْهِ) ، يَلُوحُ عَلَيْهِ النُّورُ الشَّعْشَعانِيُّ (الْمُنْتَشِرُ ٱلْمُتَوَهِّجُ) ، وَقالَ لَهُ — فِي صَوْتٍ أَشْبَهِ شَيْءٍ بِحَفِيفِ الشَّجَرِ — :

« هِيهِ يا مَلِكَ « بَنارِسَ » الْعَظِيمَ ! أَلا تَعْرِفُنِي أَيُّها الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ؟ أَنا مَلَكُ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَمَرْتَ رِجالَكَ بِاقْتِلاعِها . وَقَدْ عَلِمْتُ

— الْيَوْمَ — نَبَأَ هٰذا الْقَرارِ الْخَطِيرِ ، وَلَمْ أَكَدْ أَعْلَمُهُ حَتَّى اعْتَزَمْتُ زِيارَتَكَ لِأُثْنِيَكَ (لِأَرُدَّكَ) عَنْ عَزْمِكَ ، شَفَقَةً بِنا ، وَرَحْمَةً بِأَطْفالِ الدَّوْحَةِ الصِّغارِ . »

فَقال لَهُ مَلِكُ « بَنارسَ » :

« لا سَبِيلَ إِلَى الْعُدُولِ عَنْ هٰذا الْقَرارِ ؛ فَإِنَّ دَوْحَتَك وَحْدَها طِلْبَتِي ، وَقَصْدِي وَغايَتِي . ولَسْتُ أَرَى — فِي كُلِّ أَنْحاءِ بِلادِي — شَجَرَةً غَيْرَها تُحَقِّقُ لِي أُمْنِيَّتِيَ الْعَزِيزَةَ الَّتِي تَصْبُو إِلَيْها نَفْسِي ؛ فَهِيَ — فِيما أَعْلَمُ — طَوِيلَةٌ باسِقَةٌ ، صُلْبَةُ الْعُودِ ، كافِيَةٌ لِتَشْيِيدِ الْقَصْرِ فَوْقَها وَقَدْ أَبَنْتُ لَكَ عُذْرِي ، وَشَرَحْتُ لَكَ مَقْصِدِي ، فِي وُضُوحٍ وَصَراحَةٍ وَجَلاءٍ . »

١١ — عِنادُ الْمَلِكِ

فَقالَ لَهُ « مَلَكُ الدَّوْحَةِ » :

« تَرَوَّ أَيُّها الْمَلِيكُ الْعَظِيمُ (فَكِّرْ عَلَى مَهَلٍ) ، وَتَدَبَّرْ ما تَقُولُ ، وَأَمْعِنِ الْفِكْرَ ، وَدَقِّقِ النَّظَرَ فِيما أَنْتَ قادِمٌ عَلَيْهِ مِنْ

أَمْرٍ جَلَلٍ (خَطِيرٍ عَظِيمٍ) . وَاذْكُرْ : أَنَّنِي قَدِ اتَّخَذْتُ هٰذِهِ الدَّوْحَةَ لِي مَوْطِنًا مُنْذُ سِتِّينَ أَلْفَ عامٍ ، وَأَنَّ سُكَّانَ الْقُرَى جَمِيعًا يُكْرِمُونَ الدَّوْحَةَ مِنْ أَجْلِي ، وَأَنَّنِي قَدْ كَافَأْتُهُم — عَلَى ذٰلِكَ — أَحْسَنَ مُكَافَأَةٍ ؛ فَأَسْدَيْتُ إِلَيْهِمُ الْجَمِيلَ ، وَقَدَّمْتُ لَهُمُ الْخَيْرَ ، وتَعَهَّدْتُ الشَّجَرَ مُوالِيًا إِيَّاهُ بِعِنايَتِي ، وشَمِلْتُ الْأَطْيارَ بِرِعايَتِي ، وَبَعَثْتُ ظِلالَ الدَّوْحَةِ عَلَى مَسافَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْحَشائِشِ الَّتِي تَكْتَنِفُها (تُحِيطُ بِها) . وَقَدْ أَنِسَ النَّاسُ بِظِلالِها الوارِفَةِ (الْمُنْبَسِطَةِ) ، وارْتاحُوا لِلْجُلُوسِ إِلَى جانِبِها ، لِيَنْسِمُوا الْهَواءَ الْعَلِيلَ (يَسْتَنْشِقُوهُ) . وَلَسْتُ جَدِيرًا مِنْكَ — بَعْدَ ما أَسْدَيْتُهُ إِلَى شَعْبِكَ مِن حَسَناتٍ وَخَيْرَاتٍ — أَنْ تُنْزِلَ بِدَوْحَتِي مِثْلَ هٰذا الْعِقابِ الظَّالِمِ ، وَتُقابِلَ صَنِيعِي هٰذا بِالْجُحُودِ وَالْإِنْكارِ ، وَتَجْزِيَنِي عَلَى الْإِحسانِ ، بِالْعُقُوقِ والْكُفْرانِ . »

فَقالَ لَهُ مَلِكُ « بَنارِسَ » :

« لَقَدْ أَعْجَبَنِي حُسْنُ حَدِيثِكَ ، وَأَقْنَعَتْنِي حُجَجُكَ وَأَدِلَّتُكَ الصَّحِيحَةُ . وَلٰكِنَّنِي لا أَسْتَطِيعُ تَلْبِيَةَ مُلْتَمَسِكَ ، وَإِجابَةَ مَطْلَبِكَ ؛ فَقَدْ أَسْلَفْتُ قَضائِي ، وَقَدَّمْتُ حُكْمِي فِي ذٰلِكَ ، وَأَمَرْتُ رِجالِي

بِاقْتِلاعِ هٰذِهِ الدَّوْحَةِ ، وَلَيْسَ إِلَى تَبْدِيلِ أَمْرِى مِنْ سَبِيلٍ . »

١٢ — الرَّجاءُ الأَخِيرُ

فَحَنَى « مَلَكُ الدَّوْحَةِ » رَأْسَهُ إِلَى صَدْرِهِ ، ثُمَّ قال فى هَمْسٍ وَخُفُوتٍ :

« لَمْ يَبْقَ لِى — بَعْدَ أَنْ رَفَضْتَ رَجائِى ، وَأَبَيْتَ تَحْقِيقَ رَغْبَتِى إِلَّا مُلْتَمَسٌ واحِدٌ ، آمُلُ أَنْ تَعِدَنِى بِإِجابَتِهِ ، وَأَرْجُو أَنْ تُعْطِيَنِى وَعْدًا بِقَبُولِهِ . »

فَقالَ مَلِكُ « بنارِسَ » :

« قُلْ ، فَأَنا أَسْمَعُ . »

فَقالَ « مَلَكُ الدَّوْحَةِ » :

« أَرْجُو أَنْ تَأْمُرَ رِجالَكَ بِقَطْعِ الدَّوْحَةِ ثَلاثَ قِطَعٍ : الرَّأْسَ — أَوَّلًا — بِما يُكَلِّلُهُ مِنْ فُرُوعٍ وَأَوْراقٍ خُضْرٍ مُتَمَوِّجَةٍ ، وَالْوَسَطَ — ثانِيًا — بِما عَلَيْهِ مِنْ فُرُوعٍ وَأَغْصانٍ هِىَ أَذْرُعُ الدَّوْحَةِ ، وعَدَدُها مِائَةُ ذِراعٍ . فَإِذا انْتَهَوْا مِنْ ذٰلِكَ ، قَطَعُوا الْجِذْعَ الَّذِى يَحْمِلُ ذٰلِكَ الطَّوْدَ الشَّامِخَ (الْجَبَلَ الْعالِىَ) الْعَظِيمَ . »

فَقالَ مَلِكُ « بَنارِسَ » :

« هٰذا الْتِماسٌ عَجيبٌ ، وَمَطْلَبٌ يَدْعُو إِلَى الدَّهْشَةِ ، ولَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهِ طُولَ عُمْرِى . وَإِنِّى لَيُدْهِشُنى أنْ تَلْتَمِسَ مِنِّى أَنْ أُعَذِّبَكَ ، وَأُذِيقَكَ الْمَوْتَ ، مَرّاتٍ ثَلاثًا ! أَلَيْسَ مِنَ الْبِرِّ وَالرَّحْمَةِ بِكَ أَنْ تَحْتَمِلَ آلامَ الْمَوْتِ مَرَّةً واحِدَةً ؟ »

فَقالَ « مَلَكُ الدَّوْحَةِ » :

« كَلَّا — أَيُّها الْمَلِيكُ الْعَظِيمُ — فَلَيْس يُزْعِجُنِي أَنْ أَمُوتَ وَأَلْقَى مَصْرَعِى ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ عَلَى كلِّ كائِنٍ فِي الوُجُودِ . وَلٰكِنَّ مَا يُهِمُّنى وَيُقْلِقُ بالِي أَنَّ جَمْهَرَةً (جَماعَةً) مِنَ الْأَطْفالِ الشَّجَرِيَّةِ النَّامِيَةِ مِنْ أُسْرَتِى بِجوارِ الدَّوْحَةِ خَرَجَتْ مِنْ ثِمارِى ، وَعاشَتْ فِي كَنَفِي (تَحْتَ ظِلِّى) . فَإِذا سَقَطَتْ دَوْحَتِي عَلَيْها مَرَّةً وَاحِدَةً ، أَهْلَكَتْ — بِثِقْلِها الْعَظِيم — أَكْثَرَ أَطْفالِيَ الصِّغارِ ، وَأَسْلَمَتْها إِلَى الْمَوْتِ . وَإِنَّ حُبِّى وَشَفَقَتِي وَبِرِّى بِهٰذِهِ الْأَبْناءِ الصَّغِيرَةِ لَتَدْفَعُنِي إِلَى تَقْطِيعِ أَوْصالِي (تَمْزِيقِ أَعْضائِى) ، وَتَحَمُّلِ آلامِ الْمَوْتِ ثَلاثَ مَرّاتٍ ؛ حَتَّى تَنْجُوَ أَكْثَرُ الْأَشْجارِ مِنَ الْهَلاكِ ، وتَسْلَمَ مِنَ الْأَذَى . فَهَلْ

أَنْتَ مُجِيبِي إِلَى هٰذا ٱلرَّجاءِ ، وَمُحَقِّقٌ لِي هٰذا ٱلْمُلْتَمَسَ ٱلْعادِلَ ؟ »

فاستَوْلَى ٱلْعَجَبُ عَلَى مَلِكِ « بَنارِسَ » مِمَّا سَمِعَ ، وتَعاظَمَتْهُ الدَّهْشَةُ (ٱشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ) مِمَّا نَطَقَ بِهِ « مَلَكُ ٱلدَّوْحَةِ » .

فَقالَ لَهُ : « عَلَيَّ أَنْ أُجِيبَكَ إِلَى هٰذا الٱلْتِماسِ ! »

وَما أَتَمَّ مَلِكُ « بَنارِسَ » كَلِمَتَهُ ، حَتَّى تَلاشَى ذٰلِكَ ٱلطَّيْفُ : طَيْفُ « مَلَكِ ٱلدَّوْحَةِ » ، واسْتَخْفَى عَنْهُ .

١٣ — ٱلْقَصْرُ الْجَدِيدُ

وَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ التَّالِي ، نادَى مَلِكُ « بَنارِسَ » وَزِيرَهُ ٱلْحَكِيمَ « نارادا » ، وَأَمَرَهُ بِاسْتِدْعاءِ الْحَطَّابِينَ إِلَيْهِ . وَلَمَّا مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، قالَ لَهُمْ :

« لَقَدْ عَدَلْتُ عَنْ رَأْيِي ، وَلا حاجَةَ بِي إِلَى ٱقْتِلاعِ الدَّوْحَةِ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ بِاحْضارِها إِلَى مَدِينَتِي . وَقَدْ عَنَّ لِي (خَطَرَ بِبالِي) أَنْ أُقِيمَ عَمُودًا — مِنَ الصَّخْرِ الصُّلْبِ — فِي مِثْلِ ٱرْتِفاعِ هٰذِهِ الدَّوْحَةِ ؛ لِأُشَيِّدَ عَلَيْهِ قَصْرِيَ الْجَدِيدَ . »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ (عاوَدَ كلامَهُ) قائِلًا :

« لَقَدْ بَهَرَنِى (أَدْهَشَنِى) ما رَأَيْتُهُ مِنْ جَلِيلِ الصِّفاتِ ، وَنَبِيلِ الْمَزايا ، فِى مَلَكِ هٰذِهِ الدَّوْحَةِ ، وَهالَنِى وَمَلَأَ نَفْسِى إعْجابًا بِهِ ، وَإِكْبارًا لَهُ : ما أَبْصَرْتُهُ فِيهِ مِنَ الْوَفاءِ وَالْحُبِّ وَإِنْكارِ الذَّاتِ ، وَالْجُودِ بِنَفْسِهِ فى سَبِيلِ إنْقاذِ غَيْرِهِ . »

ثُمَّ قَصَّ مَلِكُ « بَنارسَ » عَلَيْهِمْ قِصَّةَ « مَلَكِ الدَّوْحَةِ » ، وَذَكَرَ لَهُمْ حَدِيثَهُ — مِنْ أَوَّلِهِ إلَى آخِرِهِ — فَدَهِشُوا لِهٰذا الرُّوحِ الْكَرِيمِ ، وَأُعْجِبُوا بِما أَبْداهُ مِنْ خُلُقٍ رائِعٍ قَوِيمٍ ، وَوَفاءٍ نادِرٍ عَظِيمٍ .

الفصل الثانى

ساكن الصخرة

١ – التِّمْثالُ الصَّخْرِىُّ

فَقالَ وزِيرُهُ ٱلْحَكِيمُ « نارادا » :

« لَقَدْ ذَكَّرَتْنِي هٰذِهِ الْقِصَّةُ الْعَجِيبَةُ ، بِقِصَّةِ التِّمْثالِ الصَّخْرِيِّ الَّذِي تَرَوْنَهُ فِي الْمَعْبَدِ الكَبِيرِ . فَهِيَ – فِيما أَرَى – جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُخَلَّدَ فِي بُطُونِ الْأَسْفارِ (ٱلْكُتُبِ) ، لِما فيها مِنَ الْعِظَةِ وَالاعْتِبارِ . »

فقالَ لَهُ الْمَلِكُ : « أَتَعْنِي تِمثالَ الرَّاجا (الْأَمِيرِ الْهِنْدِيِّ) ، والتَّماثِيلَ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ مِنْ أَفْرادِ أُسْرَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ؟ »

٢ – الصُّخُورُ الْآدَمِيّة

فَقالَ الْوَزِيرُ :

« نَعَمْ . وَما هِيَ بِتَماثِيلَ مَنْحُوتَةٍ – كما يَظُنُّ الْكَثِيرُونَ – بَلْ هِيَ أَناسِيُّ (ناسٌ) عاشُوا فى مَدِينَتِنا « بَنارِسَ »

رَدَحًا مِنَ الدَّهْرِ (أقامُوا فِيها زَمَنًا طَوِيلًا) ، ثُمَّ مُسِخُوا — بَعْدَ حَياتِهِمْ — صُخُورًا . »

فَقالَ المَلِكُ مَدْهُوشًا :

« لَقَدْ طالَما وَقَفْتُ أَمامَ تِلْكَ التَّماثِيلِ الصَّخْرِيَّةِ البارِعَةِ ، وَعَجِبْتُ مِنْ إبْداعِها ، وَتَأَنُّقِ صانِعِيها فِي تَصْوِيرِها وَنَحْتِها ، وَكَيْفَ سَمَا بِهِمُ الفَنُّ الأَصِيلُ حَتَّى كادَ يُنْطِقُهُمْ ، وَيُشْعِرُ النَّاظِرَ إلَيهِمْ أَنَّ الحَياةَ سارِيَةٌ فِيهِمْ ، لا سِيَّما تِمْثالُ الرَّاجا ؛ فما أَذْكُرُ أَنِّى وَقَفْتُ أمامَهُ مَرَّةً واحِدَةً حَتَّى خُيِّلَ إلَيَّ أَنَّهُ لا يَزالُ يُفَكِّرُ وَيَسْمَعُ ما أَقُولُ وَيَفْهَمُهُ ، وَحَسِبْتُ أَنَّ فِي جَسَدِهِ الصَّخْرِيِّ نَفْسًا مُسْتَقِرَّةً فِي صَمِيمِهِ . فَما اسْمُ ذٰلِكَ الرَّاجا ؟ وَما قِصَّتُهُ ؟ وَكَيْفَ عاشَ ؟ وَكَيْفَ مُسِخَ — بَعْدَ حَياتِهِ — صَخْرًا ؟ »

٣ — « سامِيتى »

فَقالَ « نارادا » :

« كانَ هٰذا الرَّاجا — أَوَّلَ أَمْرِهِ — ناسِكًا مَعْرُوفًا بِالزُّهْدِ

والوَرَعِ ، وكانَ يُدْعَى « سامِيتى » ، وَقَدْ عاشَ فى إحْدَى الْقُرَى الصَّغِيرَةِ الْوَاقِعَةِ عَلَى نَهْرِ « الْكَنْجِ » . وَقَدْ رَفَعَتْهُ فَضائِلُهُ وَزُهْدُهُ إلى مَرْتَبَةِ الْأَطْهارِ الْأَخْيارِ ؛ فَكانَ مَثَلًا مِنْ أعْلَى أمْثِلَةِ التَّقْوَى : لا هَمَّ لَهُ إلَّا الصَّلاةَ والنُّسُكَ وعِبادَةَ الْخالِقِ ، لا يَشْغَلُهُ عَنْ ذٰلِكَ شاغِلٌ مِنْ طَيِّباتِ الدُّنْيا ولَذائِذِ الْحَياةِ وَمُتَعِ الْغُرورِ .

وَقَدْ ذاعَتْ فَضائِلُهُ وَمَزَاياهُ فى بِلادِ الْهِنْدِ — قاصِيَةً وَدانِيَةً — فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ الْوُفُودُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وحَدَبٍ (مِنْ كُلِّ جِهَةٍ) ، تَمْلأُ أبْصارَها مِنْهُ ، وَتَلْتَمِسُ دَعَواتِهِ وَبَرَكاتِه ، وَتَرْجُو الشِّفاءَ وَالْبُرْءَ عَلَى يَدَيهِ ، بَعدَ أَنْ عَرَفُوا أَنَّهُ مُجابُ الدَّعوَةِ ، وَرَأوا « برَهْما » لا يَرُدُّ لَهُ رَجاءً ، وَلا يَرْفُضُ لَهُ شَفاعَةً .

٤ — خَطَراتُ نَفْسٍ

وَذا صَباحٍ فَكَّرَ النَّاسِكُ مَلِيًّا (طَويلًا) فِيما يَسْمَعُهُ مِن ثَناءِ النَّاسِ عَلَيهِ ، وَتَمْجِيدِهِم فَضَائِلَهُ وَمَزَاياهُ . فَساوَرَهُ الرَّيْبُ ، وَمَلأَ نَفْسَهُ الشَّكُّ فى أمرِهِ ، وَقالَ فِى نَفْسِهِ مُتَعَجِّبًا :

« تُرَى : أَىُّ فَضْلٍ اسْتَحْقَقْتُهُ فَأَظْفَرَنِى بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتى رفَعُونِى إِلَيها ؟

أَتُرانِى جَدِيرًا بِهٰذِهِ الْمَدائِحِ الَّتِي يُثْنُونَ بِها عَلَىَّ ؟ وَكَيفَ أستَحِقُّها وَأنا لَم أبْلُ نَفْسِى (لَم أخْتَبِرْها) مَرَّةً واحِدَةً ، وَلَم أُعَرِّضْها لِامْتِحانِ إِرادتِها يَومًا مِنَ الْأَيَّامِ أمامَ بَعضِ الْمُغْرِياتِ الَّتِي تَفْتِنُ الْعالَمَ ؟ فَكَيفَ أحكمُ عَلَى قُوَّةِ عَزِيمَتِها ؟ وَأَنَّى لِى أَنْ أَتعَرَّفَ صِدْقَ مَعْدِنِها وَأصالَةَ عُنْصُرِها ، قَبْلَ أنْ أُلْقِيَ بِها فى بُوتَقَةِ الِاختِبارِ ؛ حَيثُ تَصهرُها نارُ التَّجرِبَةِ ؟ وأىُّ فَضْلٍ لِى فِى هٰذا الصَّلاحِ ما دُمْتُ لا أَرَى حَوْلِى إِلَّا طائِفَةً مِنْ خِيارِ النَّاسِكِينَ الصَّالِحِينَ ؟ لا مَعدَى لى — إِذَن — عنِ اختِبارِ نَفْسِى وامتِحانِها ، وَتَعرِيضِها لِمَفاتِنِ الْحَياةِ وَمَباهِجِها . وَلا بُدَّ منَ الرِّحلَةِ إِلَى بَعضِ حَواضِرِ « الْهِنْدِ » الْكَبِيرَةِ ، حَيثُ أَقْضِى زَمَنَ التَّجرِبَةِ ، وَأَختَلِطُ بِالْبِيئاتِ الْمُختَلِفَةِ الْأُخرَى ، وَأَرَى الْحَياةَ الْمَرِحَةَ الْفاتِنَةَ مِن قَرِيبٍ ، وأَندَمِجُ فى بَعضِ ما تَحوِيهِ مِنْ أَسْبابِ التَّرَفِ وأَفانِينِ النَّعِيمِ .

أُرِيدُ أَن أَلْتَقِيَ الشَّرَّ وَجْهًا لِوَجهٍ ، وَأُحارِبَهُ غَيْرَ هَيّابٍ ! أُرِيدُ

أنْ أقْهَرَهُ بِما أُوتِيتُهُ (مَلَكْتُهُ) مِنْ عَزِيمَةٍ صادِقَةٍ ، وَصَوْمٍ دائِمٍ ، وَحِرْمانٍ قاطِعٍ لِجَمِيعِ الطَّيِّباتِ . وَلَنْ يَتَسَنَّى (لَنْ يَتَيَسَّرَ) لِي ذٰلِكَ إلَّا بَعْدَ أَنْ أَتَذَوَّقَها ، وَتَشْتَهِيَها نَفْسِي ، ثمّ أَكُفَّ عَنْها ، وَيَعْصِمَنِي مِنْ غِشْيانِها زُهْدِي وَنُسُكِي وَتَقْوَايَ ، فَتُجَنِّبَنِي إرَادَتِيَ الْغَلَّابَةُ الْحازِمَةُ اقْتِرافَ الْإِثْمِ ، والِانْغِماسَ فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ .

ومَتَى نَجَحْتُ فِي هٰذا الِامْتِحانِ اسْتَحْقَقْتُ أَنْ أظْفَرَ بِلَقَبِ : « صاحِبِ الْفَضِيلَةِ » ، عَنْ جَدَارَةٍ وَصِدْقٍ . »

٥ — فى مَدِينَةِ « بنارِسَ »

وما لاحَتْ تِلْكَ الرَّغْبَةُ الْعارِضَةُ لَهُ ، حتّى أَصْبَحَتْ عزِيمَةً ثابِتَةً ، لا يَتَطَرَّقُ إلَيْها وَهَنٌ ، ولا يَلْحَقُ بِها ضَعْفٌ ولا تَرَدُّدٌ . وَما لَبِثَ أَنْ أَعَدَّ لها عُدَّتَهُ ؛ فَوَدَّعَ أُسْرَتَهُ ، وَأَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ وسافَرَ — مِنْ فَوْرِهِ (لْلحالِ) — إلى مَدِينَةِ « بَنارِسَ » ، وَقَدْ سَبَقَتْهُ شُهْرَتُهُ إلَيْها قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِها ، وَذاعَ نَبَأُ مَقْدَمِهِ بَيْنَ أَهْلِها .

٦ — هدايا الأهلين

فأقبلت عليه الوفود — على أثر وصوله — وجلبوا له الكثير من النفائس والطرف والهدايا على اختلافها . وعرض عليه الأهلون أن يتفضل عليهم بتشريف دورهم . وحاول كل واحد منهم أن يستأثر به ويسكنه داره . وأحضروا له أكداسًا من طيبات الفاكهة ، ولذائذ الأطعمة الشهية . فرفض كل ما عرضوه عليه قائلاً :

« لا حاجة لي بشيء من هذا كله . حسبي — من المسكن — ركن صغير قريب من معبد أنزوي فيه ، وحسبي — من الطعام — بليلة من الذرة . »

ولكن الهدايا لم تنقطع ؛ فلم تلبث داره أن ازدحمت بلذائذ الفاكهة والأطعمة الشهية .

٧ — الثمرة الأولى

فرأى أمامه أكداسًا من فاكهة الأناناس ، ذات الرائحة

الْحُلْوَةِ الطَّيِّبةِ ، وَأَكْوامًا كَثِيرَةً مِنْ فاكِهَةِ الْمَنْجُو ذاتِ الطَّعْمِ الْمَرِيءِ الْمُسْتَساغِ ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ الْمَآكِلِ الْمُنْعِشَةِ ، جاثِمَةً أَمامَهُ . فَقالَ فِي نَفْسِهِ :

« أَيُّ مَزِيَّةٍ أَسْتَحِقُّ بِها الْفَضْلَ والتَّكْرِيمَ حِينَ أَحْرِمُ نَفْسِي هٰذِهِ الْمُتَعَ ، ما دُمْتُ لَمْ أَذُقْ لَها طَعْمًا ؟ إِنَّ الْفَضِيلَةَ الْحَقَّ لا يَنالُها صاحِبُها إِلّا إِذا حَرَمَ نَفْسَهُ مِنَ الطَّيِّباتِ الَّتِي تَشْتَهِيها .

فَلا بُدَّ — إِذَنْ — مِنْ أَنْ أَتَذَوَّقَ أَوَّلًا واحِدَةً مِنْ هٰذِهِ الْفاكِهَةِ وَمَتَى اسْتَمْرَأْتُها ، واسْتَحْسَنْتُ طَعْمَها ، كَفَفْتُ نَفْسِي عَنْها عَلَى حُبِّيها (تَرَكْتُها بِرَغْمِ مَحَبَّتِي إِيَّاها) ، وَتَفَتَّحِ نَفْسِي لِمَرْآها . وَحِينَئِذٍ يُصْبِحُ زُهْدِي فِيها ، وحِرْمانُ نَفْسِي تَذَوُّقَها ، صَنِيعًا مَشْكُورًا ، وجِهادًا عِنْدَ رَبِّي مَأْجُورًا (يُكافِئُنِي عَلَيْهِ) . »

وثَمَّةَ (حينئذٍ) أَمْسَكَ بِثَمَرَةٍ مِن طَيِّباتِ الْفاكِهَةِ ، فَوَجَدَها سائِغَةً شَهِيَّةً ، فَأَكَلَ الثّانِيَةَ والثّالِثَةَ ، فَأُعْجِبَ بِلَذائِذِ هٰذا الثَّمَرِ .

وما لَبِثَ أن نَزَلَ عَلَى حُكْمِ الشَّرَهِ ، وأَذْعَنَ للنَّهَمِ (خَضَعَ

لِلْبِطْنَةِ والْحِرْصِ عَلَى الطَّعامِ) ، فَلَمْ يُبْقِ مِنْ سِلالِ الْفاكِهةِ — عَلَى كثْرَتِها — شَيْئًا .

٨ — فِي طَرِيقِ الشَّرِّ

وَلَمْ يَكُنْ هٰذا الِاخْتِبارُ الْأَوَّلُ آخِرَ امْتِحانٍ أَخْفَقَ فِيهِ .

وَلا غَرْوَ فى ذٰلِكَ (لا عَجَبَ) ؛ فَإِنَّ مَنْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ طائِعًا مُخْتارًا لِمَفاتِنِ الْحَياةِ وَمُغْرِياتِها ، وَيَجْرُؤُ عَلَى أَنْ يَزُجَّ بِنَفْسِهِ فِي مُواجَهَةِ الشَّرِّ — بلا داعٍ — إِنَّما يُغَرِّرُ بِها أَشَدَّ تَغْرِيرٍ ، ويُعَرِّضُها لِلْهَلاكِ الْمُحَقَّقِ .

وَهٰكَذا كانَ ، وَابْتَدَأَ الطَّمَعُ يُغْرَسُ فِي قَلْبِ هٰذا النَّاسِكِ الْوَرِعِ التَّقِيِّ .

٩ — خاتَمُ الْمُلْكِ

ومَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَزادَ طُمُوحُهُ ، واشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُ فى لَذائِذِ الْحَياةِ ، وارْتَقى مِن رَغْبَةٍ إِلَى رَغْبَةٍ ، حَتى تَوَشَّجَ طَمَعُهُ ، واشْتَبَكَتْ أُصُولُهُ فى قَلْبِهِ ؛ فَقالَ فى نَفْسِهِ ذاتَ يَوْمٍ :

« أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ « راجا » ؛ لِتَكُونَ لِي قُصُورٌ فاخِرَةٌ ، وَحاشِيَةٌ وَخَدَمٌ . فَاسْتَجِبْ لِدُعائِي — يارَبِّ — جَزاءَ ما عَبَدْتُكَ لَيْلَ نَهارَ ، بِدُونِ انْقِطاعٍ . فَلَقَدْ طالَما تَفانَيْتُ فِي الْإِخْلاصِ وَالْخُضُوعِ لَكَ ، فِي صَلَواتِيَ الَّتِي أَقَمْتُها آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرافَ النَّهارِ .

فَامْنَحْنِي خاتَمَ الْمُلْكِ الَّذِي يُظْفِرُ صاحِبَهُ بِكُلِّ ما تَصْبُو إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَتَرْغَبُ فِيهِ مِنْ لَذائِذِ الْحَياةِ وَطَيِّباتِها . »

١٠ — حَدِيثُ « رَفانا »

فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ — حِينَئِذٍ — « برهما » : رَسُولُ الْخَيْرِ ، وَمَلَكُ الرَّحْمَةِ ؛ بلْ ظَهَرَ لَهُ بَدَلًا مِنْهُ « رَفانا » رَسُولُ الشَّرِّ ، وَشَيْطانُ الْأَذَى ، فَقالَ لَهُ :

« أَتُرِيدُ أَنْ تُصْبِحَ « راجا » ؟ فَلْيَكُنْ لَكَ ما تُرِيدُ ، فَقَدْ أَجَبْتُ دُعاءَكَ ، وَإِنِّي مُبَلِّغُكَ مُرادَكَ ، وَمُحَقِّقٌ لَكَ رَغْبَتَكَ ؛ ولٰكِنْ عَلَى شَرِيطَةٍ واحِدَةٍ : فَلَنْ أَمْنَحَكَ ما تَطْلُبُ مِنْ مُلْكٍ واسِعِ الْغِنَى ، عَرِيضِ الْجاهِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُفَوِّضَ لِيَ الْأَمْرَ فيما تَمْلِكُ مِنْ حَيَوانٍ

لأُهْلِكَهُ وَأُزْهِقَ رُوحَهُ بِنَفْسِي؛ لأَنِّي أُحِبُّ الشَّرَّ وَالْأَذَى . »

١١ — ضَعْفُ النَّاسِكِ

فَتَرَدَّدَ النَّاسِكُ فِي قَبُولِ هٰذا الشَّرْطِ لَحْظَةً ، وَلٰكِنَّ « رَفانا » لَوَّحَ لَهُ بِبَرِيقِ الذَّهَبِ الْخاطِفِ ، وَقالَ لَهُ :

« كُلُّ هٰذا مِلْكٌ لَكَ ، مَتى أَظْفَرْتَنِي بِما طَلَبْتُهُ . »

فَصاحَ « سامِيتِي » قائِلًا ، وَالْأَلَمُ يَجِزُّ فِي نَفْسِهِ :

« لَكَ ما أَمْلِكُ مِنْ حَيَوانٍ ، فاصْنَعْ بِهِ ما شِئْتَ . »

١٢ — مَلِكُ الْمُلُوكِ

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وتَجَدَّدَتْ مَطامِعُهُ ، وَزادَتْ رَغَباتُهُ ؛ فاتَّجَهَ لِرَسُولِ الشَّرِّ « رفانا » قائِلًا : « أُرِيدُ أَنْ أُصْبِحَ إِمْبِراطُورًا . أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لِي أَكْبَرُ جَيْشٍ فِي الدُّنْيا . أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لِيَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ . أُرِيدُ أَنْ أُصْبِحَ مَلِكَ مُلُوكِ « الْهِنْدِ » جَمِيعًا ، لا يُنازِعُنِي فِي سُلْطانِي كائِنٌ كانَ . »

فَأَجابَهُ « رَفانا » : « فِي قُدْرَتِي أَنْ أَمْنَحَكَ جَمِيعَ ما تَطْلُبُ ، وَلٰكِنْ عَلَى أَنْ تُفَوِّضَ لِيَ الْأَمْرَ فِي رَعِيَّتِكَ ، وَتَهَبَ لِي حَياةَ شَعْبِكَ وَخَدَمِكَ ؛ لِأَعِيثَ فِي الْبِلادِ فَسادًا ، وَأُشِيعَ فِي جُمْهُورِهِمُ الطَّاعُونَ . »

فَقالَ « سامِيتي » مُتَنَهِّدًا مَحْزُونًا :

« أَلَيْسَ لِي مَعْدًى ولا مَفَرٌّ ، عَنْ بَذْلِ هٰذِهِ التَّضْحِياتِ ، لِأَفُوزَ بِما أُرِيدُ ؟ »

فَأَجابَهُ « رَفانا » :

« لا شَيْءَ يَضْطَرُّكَ إِلَى بَذْلِ الْفِداءِ ؛ فابْقَ — كَما أَنْتَ — أَمِيرًا ، وانْظُرْ إِلَى الْإِمْبِراطُورِ (مَلِكِ الْمُلُوكِ) وَما يَكْتَنِفُهُ (ما يُحِيطُ بِهِ) مِنْ أُبَّهَةٍ وَعَظَمَةٍ وَبَهْجَةٍ ، وَلْتَمْتَلِئْ نَفْسُكَ حَسْرَةً حِينَ تَرَى جِيادَهُ الْمُسَوَّمَةَ (خَيْلَهُ الرَّشِيقَةَ الْفاخِرَةَ) ، وَتَشْهَدُ مَوْكِبَهُ الْحاشِدَ ، وَأَفْيالَهُ الضَّخْمَةَ ، وَقَدْ وَطِئَتْكَ وَداسَتْكَ بِأَقْدامِها ، أَوْ أَثارَتْ فِي وَجْهِكَ ذَرَّاتٍ مِنَ الْغُبارِ وَرَذاذًا مِنَ الطِّينِ . »

فَصاحَ « سامِيتي » : « كَلَّا ، كَلَّا ، لا أُرِيدُ أَنْ أُقْهَرَ ، وَلا أُحِبُّ

أُغْلَبَ أَبَدًا ؛ بَلْ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَقْوَى إِنْسانٍ فِي عَصْرِي
أَنْ أُصْبِحَ إِمْبراطُورَ « الْهِنْدِ » (مَلِكَ مُلُوكِها) .
ما دُمْتَ مُصِرًّا عَلَى رَأْيِكَ فاصْنَعْ بِشَعْبِي ما بَدا لَكَ »

١٣ — مَصائِبُ الشَّعْبِ

فابْتَهَجَ « رَفانا » : رَسُولُ الشَّرِّ ، وَشَيْطانُ الْأَذَى ، وَقَهْقَهَ ضاحِكًا
رُورًا بِما ظَفِرَ بِهِ مِنْ نجاحٍ وَتَوْفِيقٍ . وَما ارْتَقَى « سامِيتِي »
نَـهُ الْإِمْبِراطُورِيَّ ، حَتَّى أَشاعَ « رَفانا » فِي شَمْبِهِ الوَنَأَ ،
سَرَ الطَّاعُونَ بَيْنَهُمْ ؛ فَأَهْلَكَ النّاسَ ، وَحَصَدَهُمْ وُحْدانًا
إِفاتٍ (أَفْناهُمْ أَفْرادًا وَجَماعاتٍ) ، دُونَ أَنْ يُبالِيَ « سامِيتِي »
مَهُم وَمَصارِعَهُمْ .

١٤ — مَتاعُ الْغُرُور

وَهٰكذا اعْتَصَمَ « سامِيتِي » (احْتَمَى) بِقَصْرِهِ الْإِمْبراطُورِيِّ الْفاخِرِ
يفِ (الْعالِي) ، الَّذِي يَتَلَأْلَأُ بِالذَّهَبِ الْخالِصِ وَالْأَحْجارِ

ٱلْكَرِيمَةِ ، وَأَصْبَحَ إِمْبِراطورًا مُسَيْطِرًا عَلَى ٱلْعِبادِ ، يَهابُهُ النَّاسُ ، وَيُمَجِّدُ قُوَّتَهُ ٱلْجُنُودُ ، وَيَهْتِفُونَ لَهُ مِلْءَ حَناجِرِهِمْ . وَاشْتَدَّ عُجْبُهُ وَخُيَلاؤُهُ ، وَتَضاعَفَ زَهْوُهُ وَكِبْرِياؤُهُ ، وَشَغَلَتْهُ لَذَائِذُ ٱلدُّنْيا ، وَأَنْساهُ مَتاعُ ٱلْغُرُورِ آلامَ ٱلنَّاسِ وَمَصائِبَهُمْ ، وَأَغْراهُ ضَعْفُهُمْ ؛ فَطَغَى وتَجَبَّرَ ، وَتَمادَى فِي ظُلْمِهِ ، بَعْدَ أَنْ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ إِلٰهًا وَٱلنَّاسُ لَهُ عَبِيدٌ .

١٥ — حُبُّ الْبَقاء

وَذا صَباحٍ ، فَكَّرَ فِي نَفْسِهِ مَلِيًّا (تَأَمَّلَ طَوِيلًا) ، وَقَدْ أَنْساهُ حُبُّ الْحَياةِ كُلَّ شَيْءٍ ؛ فَقالَ مُتَحَسِّرًا :

« وا أَسَفا عَلَيْكَ يا « سامِيتِي » ! إِنَّ ٱلْمَوْتَ سَيَخْطَفُكَ كَما خَطِفَ غَيْرَكَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ يُنْقِذَكَ مِنْ غائِلَتِهِ شَيْءٌ ، وَسَتَكُونُ نِهايَتُكَ ٱلْفَناءَ ، وَتَرِدُ حَوْضَ ٱلْمَنِيَّةِ (ٱلْمَوْتِ) ، ٱلَّذِي وَرَدَهُ الْأَناسِيُّ فِي جَمِيعِ ٱلْعُصُورِ .

فَكَيْفَ تُطِيقُ هٰذا ٱلْمَصِيرَ ؟ كَيْفَ تَرْضَى لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ

مِنَ ٱلْفانِينَ الْهالِكِينَ ؟ كَلَّا ، لا يُطِيقُ هٰذِهِ ٱلْخاتِمَةَ ٱلْمُحْزِنَةَ ٱلْفاجِعَةَ عاقِلٌ ، وَلا يَرْضاها لِنَفْسِهِ راشِدٌ . »

١٦ — ثَمَنُ الْخُلُودِ

ثُمَّ صَرَخَ « سامِيتى » يَدْعُو « رَفانا » راجِيًا ضارِعًا أَنْ يَهَبَ لهُ بَقاءَ ٱلتَّأْبِيدِ (يَمْنَحَهُ عَيْشَ ٱلْخُلُودِ) . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ « رَفانا » ، وَقالَ لَهُ وَهُوَ يُقَطِّبُ حاجِبَهُ :

« ماذا تُرِيدُ ؟ أَلَمْ تَظْفَرْ منَ الْأَمانِيِّ بِما لَمْ يَظْفَرْ بِهِ أَحَدٌ ؟ هَلْ بَقِيَتْ لَكَ رَغْبَةٌ لَمْ تُقْضَ بَعْدُ ؟ »

فَقالَ « سامِيتى » : « نَعَمْ ، أُرِيدُ أَنْ تَهَبَ لِيَ الْخُلُودَ ! »

فَأَجابَهُ : « إِذَنْ تُرِيدَ أَنْ تَشْرَكَ إِلٰهَكَ فى صِفَةِ ٱلْبَقاءِ ٱلَّتِي تَفَرَّدَ بِها ؟ هٰذا أَمْرٌ عَزِيزُ ٱلْمَنالِ ، بَعِيدُ ٱلْإِدْراكِ .

وَلٰكِنِّى أُحَقِّقُهُ لَكَ ، إِذا قَبِلْتَ شَيْئًا واحِدًا ؛ وَهُوَ أَنْ تَرْضَى — فى هٰذِهِ الْمَرَّةِ — بِهَلاكِ أَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ ، وَأَنْ تَكُونَ مَصارِعُهُمْ عَلَى يَدَيْكَ . »

فقال « سامِيتى » : « أَمَّا هٰذا فَلا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، وَلَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ مِنِّى أَبَدًا . »

فَأَجابَهُ « رَفانا » ساخِرًا :

« دَعْنِي — إِذَنْ — هادِئًا ، وَلا تُزْعِجْنِي بِنِدائِكَ إِيَّاىَ مَرَّةً أُخْرَى . »

١٧ — ضَعْفُ الشَّيْخُوخَةِ

وَمَرَّتِ السِّنُونَ ، وانْقَضَتِ الْأَعْوامُ مُتَعاقِبَةً ، وَظَلَّ بَطَلُ قِصَّتِنا « سامِيتى » يُقاوِمُ ذٰلِكَ الْإِغْراءَ ؛ وَلٰكِنَّ الشَّيْخُوخَةَ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَدْرَكَتْهُ ، تَسْعَى إِلَيْهِ بِخُطُواتٍ مُسْرِعَةٍ حَثِيثَةٍ . فَلَمَّا شَعَرَ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ (قُرْبِ مَوْتِهِ) ، وَأَحَسَّ أَنَّ شَبَحَ الْمَوْتِ يَقْتَرِبُ مِنْهُ ، وَيَجِدُّ فِى الْبَحْثِ عَنْهُ ، أَنْسَتْهُ أَنانِيَّتُهُ (حُبُّهُ ذاتَهُ) كُلَّ شَىْءٍ ؛ فَصاحَ يَدْعُو « رَفانا » ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَمَّا يُرِيدُ .

فَقالَ لَهُ : « أَهْلِكْ مَنْ شِئْتَ مِنْ عَشِيرَتِى ، وَهَيِّئْ لِىَ الْخُلُودَ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

١٨ — صَوْتُ الْهاتِفِ

وَهُنا سَمِعَ « ساميتي » هاتِفًا يَهْتِفُ بِهِ منَ السَّماء :

« لَقَدْ كَثُرَتْ ذُنُوبُكَ وآثامُكَ ، وَامْتَلأَ الْكَيْلُ بِخَطاياكَ ، واسْتَحْقَقْتَ اللَّعْنَةَ جَزَاءَ ما أَسْرَفْتَ فِي ضَلالِكَ وَبَغْيِك . لَقَدْ كانَ فى قُدْرَتِكَ أَنْ تَعيشَ أَسْعَدَ مَخْلُوقٍ : تَحُفُّكَ الْمَهابَةُ والْجَلالُ . وَلٰكِنَّكَ — وقَدِ انْزَلَقْتَ مَرَّةً فِي طَرِيقِ الشَّرِّ — لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُقاوِمَ تَيَّارَهُ الْجارِفَ ؛ فَدَفَعَتْكَ الْخُطْوَةُ الأُولَى إِلَى ما بَعْدَها مِنْ خُطُواتٍ ، انْتَهَتْ بِكَ إِلَى هٰذِهِ الْخاتِمَةِ الْمُحْزِنَةِ ، فَلَمْ تَسْتَطِعِ الْوُقُوفَ فى ذٰلِكَ الْمُنْحَدَرِ الْهاوِي السَّحِيقِ . وَأَسْلَمَتْكَ غَيَّتُكَ وَضَلالُكَ إِلَى ما تَراهُ ، فَسَوَّلَتْ لَكَ أَنْ تَقْتَرِفَ إِثْمًا بَعْدَ إِثْمٍ ؛ فَلَمْ تَتَوَرَّعْ عَنِ ارْتِكابِ كَبِيرَةٍ مَهْما عَظُمَتْ .

١٩ — ساكِنُ الصَّخْرَةِ

أَتَصْبُو إِلى الْخُلُودِ نَفْسُكَ ؟ حَسَنًا . سَتَظْفَرُ بِطِلْبَتِكَ هٰذِهِ ،

وَسَتَبْقَى لَكَ وَلِأُسْرَتِكَ الْحَياةُ أَبَدًا . وَلٰكِنْ ما دامَ قَلْبُكَ فِي مِثْلِ صَلابَةِ الصَّخْرَةِ ، فَلْيَكُنْ جِسْمُكَ الْآدَمِيُّ صَخْرَةً أَيْضًا ، مِثْلَ قَلْبِكَ . أَلَا وَلْتُمْسَخْ مَعَ جَمِيعِ مَنْ ضَحَّيْتَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِكَ تَماثِيل مِنَ الْحِجارَةِ ، وَلْيَنامُوا جَمِيعًا فِي سَلامٍ وادِعِينَ أَمَّا أَنْتَ ، فَلْتَبْقَ رُوحُكَ خالِدَةً فِي تِمْثالِكَ الصَّخْرِيِّ ؛ لِتَكُونَ مَثَلًا نافِعًا ، وَعِظَةً ناطِقَةً لِمَنْ يَقْتَفِي آثارَكَ مِنَ الْباغِينَ الظَّالِمِينَ ، وَيَرْتَضِي سُنَّتَكَ (يختارُ طَرِيقَتَكَ) مِنَ الْعادِينَ (الْمُعْتَدِين) . »

خاتِمَةُ الْقِصَّـــةِ

فَقالَ مَلِكُ « بنارِسَ » : « ما أَعْجَبَ ما رَوَيْتَ — أَيُّها الْحَكِيمُ الْعَظِيمُ — فَإِنَّ ما قَصَصْتَهُ عَلَيْنا مِنْ شَرَهِ « ساميتِي » وَأَنانِيَّتِهِ ، وَتَفانِيهِ فِي الإِقْبالِ عَلَى لَذائِذِ الدُّنْيا الْخادِعَةِ ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ النَّقائِصِ الْمَرْذُولَةِ : لا يَقِلُّ غَرابَةً عَمَّا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ مِنْ وَفاءِ « مَلَكِ الدَّوْحَةِ » ، وَإِنْكارِهِ ذاتَه ، وَجُودِهِ بِنَفْسِهِ ، وَما إِلى هٰذا مِنَ الْمَزايا النَّبِيلَةِ . »

لَقَدْ رَأَيْنا مِنْ شَناعَةِ « ساكِنِ الصَّخْرَةِ » وَفَعالِهِ الذَّميمِ ، بِقَدْرِ ما عَرَفْنا مِنْ نَبالَةِ « ساكِنِ الدَّوْحَةِ » وخُلُقِهِ الْكَرِيمِ .

وإنَّ فِي هاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ — عَلى وَجازَتِهِما (بِرَغْمِ اُخْتِصارِهِما) ، وَاُخْتِلافِ قَصْدَيْهِما ، وَتَبايُنِ غايَتَيْهِما — لَدَرْسًا بَليغًا نافِعًا لِأُولِي الأَلْبابِ ، وَحِكمةً سامِيَةً لِمَنْ وَعَى ، وَآيَةً ناطِقَةً لِمَنِ اُعْتَبَرَ . »

مكتبة الكيلانى

مَجْمُوعاتُها : تُسايِرُ التِّلْميذَ فِى نَحْوِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً ، رائِعَةَ الصُّوَرِ ، بَدِيعَةَ الْإِخْراجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِياضِ الْأَطْفالِ إِلَى خِتامِ التَّعْلِيمِ الثَّانَوِىِّ . ثُمَّ تُسْلِمُهُ إِلَى مَكْتَبَةِ الْكِيلانِىِّ لِلشَّبابِ .

مادَّتُها : تُقَوِّمُ الْخُلُقَ ، وَتُرَبِّى الذِّهْنَ ، وَتُعَلِّمُ الْأَدَبَ .

فَنُّها : يَشُوقُ الْقارِئَ وَيُمْتِعُهُ ، وَيُحَبِّبُ الْكِتابَ إِلَيْهِ .

لُغَتُها : تُنَمِّى مَلَكَةَ التَّعْبِيرِ ، وَتَطْبَعُ اللِّسانَ عَلَى فَصِيحِ الْبَيانِ .

ثَوْرَةٌ رَشِيدَةٌ ، أَجْمَعَ عَلَى تَأْيِيدِها وُزَراءُ الْمَعارِفِ وَزُعَماءُ التَّعْلِيمِ وَقادَةُ الرَّأْىِ فِى الشَّرْقِ ، وَكِبارُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَعْلامُ التَّرْبِيَةِ فِى الْغَرْبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بِتَنْشِئَةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحْدَثِ أُسُسِ التَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ . تَوالَتْ طَبَعاتُها الْعَرَبِيَّةُ ؛ فَتَثَقَّفَ بِها الْجِيلُ الْجَدِيدُ فِى بِلادِ الْعُرُوبَةِ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْها بَيْتٌ عَرَبِىٌّ .

تُرْجِمَتْ إِلَى أَكْثَرِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَعْضِ اللُّغاتِ الْغَرْبِيَّةِ .

مَدْرَسَةٌ حُرَّةٌ ، إِذَا عَرَفَها التِّلْميذُ ، سَعَى إِلَيْها بِلا تَرْغِيبٍ وَلا تَرْهِيبٍ .

كانَتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةٍ لِلآباءِ ، وَهِىَ الْيَوْمَ أَشْهَى غِذاءٍ ثَقافِىٍّ لِلْأَبْناءِ .

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٣٤٧٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4033-8

٧/٩٣/١٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مكتبة الأطفال

بقلم

كامل الكيلاني

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
[illegible] قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أتينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ » فى بلاد العمالقة .
٣ » فى الجزيرة الطيار
٤ » فى جزيرة الجياد
٥ روبنسن كروزو .

قصص عر

١ حى بن يقظان . ٢ ابن

قصص تمثي

١ الملك النجار .

٢١٠٦٠٩

دار المعارف